

الجزء التاسع من السنة الثانية ويليه الجزء العاشر

١ سبتمبر ١٨٩٠ الموافق ١٦ محرم سنة ١٣٠٨

الراوي

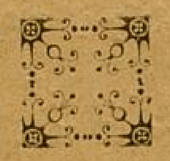
﴿ الاعمال مرهونة باوقاتها ﴾

علم حضرات القرآء الكرام بما يختلج في الصدر من لهيب الوطنية يتقد في الفؤاد من نار الحمية العربية واتضح لديهم اعزّهم الله ما تبذله هذه المجلة من الخدمة في سبيل المصلحة العامة وتستنفده من الجهد في خدمة البلاد والحرية وانها تتهالك في بث روح المساواة والاخاء وتصل الليل بالنهار سعياً الى وصل حبل الوداد والولاء فنظروا اليها بعين الرضى وامهروها الاستحسان وهما وايمُ الله غاية المنى ومنتهى القصد لدى من لا هم له سوى خدمة الاوطان

ولقد وصلنا اناء الليل باطراف النهار غير مدخرين جهداً ولا موفرين جداً سعياً وراء المصلحة ووفاء لحق الخدمة فقطعنا من العام ثلثيه قضيناهما في ازالة عقبات وتذليل صعوبات لو اعتورت سير سوانا من منتحلي صناعة الادب لما ثبت امامها من عامنا شهراً ولا من شهرنا يوماً ٠ وقد كان الامل معقوداً بمواصلة السير حتى نبلغ منتهى القصد لولا ما أُوتيناه من امرٍ جللٍ لم يكن على البال وحادث ذي بالٍ تغيرّت بهِ مجاري الاحوال فاضطررنا على رغمٍ منا الى مجاراة الايام ونحن نقول صبراً على مجامر الكرام٠ ونظرنا فاذا نصب العين شرّان فاخترنا اهون الشرين واسكتنا لسان الراوي شهراً وقلنا لثعلبة مهلاً فلسوف تحدث الناس عن شهرين

ولقد جئنا اليوم نسأل مواطنينا الكرام عذراً وان لم نأتِ في الامر من عند انفسنا وزراً ولكننا نتحمل تبعة التاخير صامتين حتى يأتي زمنٌ لا جناح فيهِ على بني الحرية ان يطالبوا بالحق مجاهرين

واما الان فهوذا العددان التاسع والعاشر نصدرهما معاً في ثمانين صفحة موفين حقوق الخدمة حق الوفاء معوضين عما فاتنا تأديتهُ في وقتهِ من حقوق القراء والاعمال مرهونة باوقاتها



﴿ العام الجديد ﴾

تهنئة لسمو الخديوي المعظم توفيق الاول عزيز مصر
ايد الله سرير ملكه

ذكرت من أهوى فقلتُ السلام   يا كعبة الحسن العزيز المقام
يا نور شمس الظرف واللطف يا —   شبيهة الظبي وبدر التمام
يامن ملكت القلب حتى غدا   عبداً والقى في يديك الزمام
يا مهجة الصب بحبٍ لها   لو لم يكن شوقا براها السقام
يا مهجة العاشق لولا الاسى   وعينهُ لو لم تكن لا تنام
يا بشراً البسهُ الله ما   قد زانهُ من حلية لا ترام
يا بشراً استغفر الله بل انتَ ملاكٌ بيننا قد اقام
جئت رسولاً من الهِ الهوى   تخط عيناكَ كتاب الهيام
وفي معانيك التي قد زهت   هادٍ الى هيكل قدس الغرام
قد غرّ عسال اللمى نفسنا   ودونهُ عسال ذاك القوام
في الناس من لا يشتهي حاضراً   ويطمع النفس بطيف المنام
هيهات لا يرقى متون العلى   الا يراع او قنا او حسام
كذاك لا يرقى الى ربه   الاَّ الذي عفَّ وصلى وصام
جمعت ياتوفيق هذى المنى   فكنت اولى من يسود الانام
بالعدل قد وليت مصراً فقد   كنت لها عمراً وكنت الامام
ان كانت الارضَ فانت الندى   او كانت الثغر فانت ابتسام

ضاءَت لياليها وقد سدتها كما يضيُّ البدر جنح الظلام
طوبى لعام انت مجدٌ لهُ فانهُ اربى على كل عام
يحسدهُ العام الذي قد مضى ويشتهي القادم منهُ التمام
ان كنت تستغرق عاماً اتى فما مضى في بحر جدواك عام
لا زلت يزهو بك كل ابتدا ويشتهي ان لا يراهُ ختام

الاسكندرية في ١ محرم سنة ١٣٠٨ = ١٦ آب سنة ١٨٩٠

بنده

منشئ الراوي

ادب الدارس

بعد المدارس

نفتتح مقالات هذا العدد بالخطاب البليغ حيث الفصاحة والحكمة الذي لفظهُ حضرة علاَّمتنا المحقق ولغويّنا الفاضل المدقق استاذنا الشيخ ابرهيم اليازجي في اثناء توزيع الجوائز على طلبة المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت يوم الاحد الواقع في ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٠ . وهو الخطاب الذي تهافتت جرائدنا المحلية على نشرهِ لما فيهِ من البلاغة الفائقة والحكمة الشائقة بحيث اصبح امرهُ اشهر من نارٍ على علمٍ . ولاغرو فانهُ من بنيات افكار ذلك الاستاذ الكريم واحدى حظيات لقمان العصر الحكيم بل درّة الغواص تقل في جنبها سائر الدرر وفريدة العقد يرتخص بازائها كل در وجوهر ونحن نزين بهِ جيد المجلة حرصاً على فوائدهِ ودررهِ التي لا تقوى الصحف اليومية على المحافظة عليها مطلقين لسان الراوي بالثناء على فرع

الدوحة اليازجية الكريمة التي نجني منها في كل يوم فائدة لا يوازيها ثمن . اما الخطاب فهو بمبناهُ الشائق ومعناهُ الرائق ناخذهُ عن نسخة اختصنا بها الاستاذ اعزّهُ الله ونفعنا بعلمهِ :

ايها السادة

قد دُعيت للكلام بين ايديكم بما يتنزل منزلة خطابٍ اصرف بهِ مسامعكم الى غير ما يتلى عليكم من هذه الاسماء المتتابعة والاعلام المتناسقة استدعاء لجمام الخواطر ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل وان كان ولا ريب مما ترتاح اليهِ نفس كل وطنيّ يرى سباق فتياننا الاذكياء ومباراتهم الى نيل قصب السبق في مضمار الفلاح غير ان ضيق الوقت واشتراط الايجاز في القول يمنعني من تخير غرض ذي بالٍ أُفيض فيهِ في هذا الموقف الحافل ولا سيما ونحن في معمعان الفصل وتوقد وطيسهِ مع اعترافي بقلة البضاعة وقصر الباع ولذلك رأَيت ان اوجّه كلامي الى الحلقات الأُوَل من طلبة هذه المدرسة الماثلين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درسٍ اخير القيهِ عليهم في هذه السنة تثبت في محفوظهم آثارهُ ولا يذهب من نفوسهم تذكارهُ والله المسؤول ان يتولاني واياهم بهدايتهِ وتسديدهِ

فانكم ايها التلامذة النجباء بل الاخوان الاحباء قد قضيتم ههنا الشهور بل الاعوام حتى بلغتم الحد الذي فيهِ عرفتم من انفسكم معنى تحملكم مشاق الدرس والسهر وحمل طبائعكم على الجهد والنصب وفطم انفسكم عن ملاهي الحداثة واعطاء قياد اهوائكم لمن يسوسها دونكم ومهاجرة المنازل التي الفتموها والاهل الذين نشأتم بينهم والاخوان الذين جمعتكم واياهم دار المولد وأُلفت بينكم وبينهم عشرة الصباء . وما فيكم من يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهمات التكاليف بين تشييد بنائها واعداد محلاتها وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم وسائر احوالكم وما يتجشم اولياؤُكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة وان ذلك باجمعهِ وقفٌ على مصلحتكم وسعيٌ في شؤُون آتيكم وتبليغكم الطور الذي تكونون فيهِ اهلاً لان تقبضوا على ازمة عصركم وتعلوا المحلات الاولى من مجتمعكم وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعه عليكم وعلى البلاد

فاذا خرجتم من هذه المدرسة وفي ايديكم الاجازات المؤذنة باستكمالكم دروسها فاول ما اوصيكم بهِ المثابرة على درس ما تلقيتموهُ فيها وتعهد الذاكرة بهِ مخافة ان يسرع اليهِ النسيان فان آفة العلم كما قيل اهمالهُ فاجعلوهُ حديث النفس في خلواتكم وتذاكروهُ في مجالسكم وروضوا باسرارهِ خواطركم حتى تستحكم ملكتهُ في اذهانكم وترسخ مسائلهُ في مخيلاتكم وتتمثل صورهُ في بدائهكم . ولا تقنعوا منهُ بالقدر الذي بلغتموهُ في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليهِ ايديكم منهُ وخذوا انفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كنه المسائل والاحاطة باطرافها واستظهار نادها وغريبها فان المدرسة لا تضمن لاحدٍ ممن تلقى علومها ان يخرج منها عالماً ولا ذلك في غاية شيء من المدارس ولا في طوقها وانما العالم يصير عالماً في بيتهِ وفي مقام شغلهِ وهو استاذ نفسهِ على الحقيقة يبلغها الكمال بادمان الجهد وتكرار المطالعة والاشتغال . ولست انكر على احاد منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً عزيزاً واحصوا من الاصول والقياس حظاً جليلاً غير اني لا أُطرئ احداً منهم بانهُ قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرب من حدود الكمال ولكني ابشر الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا الى اخر درجة من سلم الدروس بانهم قد صاروا اهلاً لان يضعوا اقدامهم في اول درجةٍ من سلم العلم ورجائي بما عهدت من ذكاء افئدتهم وثبات عزائمهم انهم سيصحون عن قليلٍ في سواد اهل العلم القائمين برفع منارهِ والتطريس على اثارهِ اذا لم تهب عليهم ريح الكسل التي تطفي نور الذكاء وتنسف حصون الثبات الا وهو الآفة التي احذركم شرها واسأل لكم العافية منها واذا جاوزتموها لم اخشَ على عزائمكم ان تكسع بوهن ولا على جهدكم ان ينال بضياع

ولست ازيدكم بياناً ان العالم لا ينفع بعلمهِ الا اذا كان راسخ القدم فيهِ مستبطناً لاسرارهِ ودخائلهِ محيطاً بما تشعب من فروعهِ ومسائلهِ وذلك مما لا ينال الا بطول المزاولة وتكرار المراجعة وتفريغ الذهن لما يتوخى حفظهُ واخلاء الذرع لاحصائهِ ولذلك فاني انصح للمستزيد منكم ان لا يتعرض لما لا يعنيهِ من العلم ولا يتجاوز ما درسهُ الى غيرهِ قبل ان يستوفي حظهُ منهُ ويرسخ في ملكتهِ وان وجد من نفسهِ قدرةً على التوسع وميلاً الى المزيد فليكن فيما يجانس مأخذهُ وينضم في سلكهِ بحيث لا يكون انتقال الذهن بعيداً ولا تتعارض فيهِ صور العلوم بما يضعف ملكتها

فيهِ وتضيق الحافظة عن احصائهِ . على ان المرء مفطورٌ على التطال مولعٌ بالاطلاع على ما لم يعلم ولكل علم فائدةٌ تتوفر بها مادة العقل ويتسع مذهب الفكر ويبعد مرمى البصيرة فلا يمتنع على من شاء منكم ان يزين علمهُ بما يضم اليهِ من سائر العلوم ويشحذ ذهنهُ بما يصل اليهِ اطلاعهُ من المدارك ولكن ليكن ذلك بحيث لا يصرفهُ عما هو فنهُ الجدير بالتوسع فيهِ وليقتصر فيه على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر باعهُ عن تناول كل واحدٍ من العلوم التي يتوخاها فيخرج متخلفاً في الجميع . وان سمعتم ان فلاناً المنعوت بعلاّمة العلماء وفيلسوف العصر قد احاط بمتفرق العلوم واصبح في كلٍ منها اماماً فانما هو تزيين المحال وتلقين الغرور وهؤلاء مشاهير علماء المتقدمين والمتأخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليهِ بالسبق والتبريز الا وهو قد اشتهر بجنسٍ من العلم ولم يكن لهُ في سائر العلوم الأُخر الا مشاركات

واذا ضمكم مجلس ادب وتشمرتم للبحث فيهِ فلا تتفرغوا للنقد والتخطئة والتنبيه على هفوات اهل العلم ارادة ان تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم ارفع ممن تخطئونهُ مقاماً واوسع علماً فان ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور وتلحظون بعين الكراهة من رصفائكم وانماطكم وتنصبون انفسكم اغراضاً للقارضين واهدافاً للطاعنين وتغرون الالسنة بالغض من مزيتكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونهُ من المقاصد وتتجهون اليهِ من الرغائب . واحذركم كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضلٍ او مزيّة واعترف لهُ سواد الناس ولا سيما اهل العلم بالتقدم فانكم ان فعلتم جعلتم انفسكم غرضاً لكل من تشيع لهُ فاكثرتم اعداءكم ومناصبيكم في حين انتم على حدثان امركم احوج الناس الى الاستكثار من الصحابة والاصدقاء والمشايعين في احوال الدنيا والدافعين الى التقدم في مراتب الشهرة والفضل . ولا تحسبنَّ الناس سواء في معرفة الصواب فان ذوي العلم فيهم نفرٌ معدود والمنصفون من اولئك قليلٌ وفيهم من لا يهمهُ ان يعرف موضع الحق فلا يتفرغ للبحث في دعواكم وانما يحكم بمجرد ما تقرَّر في علمهِ او سبق الى وهمهِ من افضلية الاشهر فلا تحصلون منهُ على طائل . واذا كان ذلك حال العلماء وهو الواقع في كثيرٍ من الامر فما الظن بغيرهم

ن لا اداة له للحكم ولا موقع عنده للفصل

واذا جالستم اهل العلم ولا سيما ذوي التبريز منهم فليكن مقعدكم منهم مقعد المستفيد واياكم والاعتراض عليهم ولو غلطوا فان في علمهم ما يخرجهم مما اخذتم عليهم ولا تأمنون ان يرموكم فيما لا تخرجون منه . واذا اعترض عليكم عارف واظهر لكم خطأ بدر منكم فلا تسرعوا الى الاحتجاج والمكابرة أنفةً واستكبارًا بعد ما عرفتم الحق فان ذلك يزري بعلمكم ويرميكم بالجهل ووهن التمييز ثم يكون سببًا في حرمانكم فوائد جمة . واذا دفعتم الى جدل فتحاموا الصلف والتحقير واخذ الخصم بالعنف والاستعلاء لاقناعه بالحق فان ذلك مما يضيع الحق ويخفي وجه الصواب ويعود عليكم بالتهمة لان الصلف من سلاح العاجز واياكم ومساجلة من هو دونكم علمًا والاشتغال بمغالطته وجداله ولكن ينبغي ان ترشدوه الى الصواب ارشاد المفيد فان ابى وكابر فاقلعوا عنه اقلاعًا جميلًا لئلا يشين علمكم ويستدرجكم الى ما يستنزل اقدامكم فتؤتون من الطريق الذي اخذتموه عليه وترجعون عنه بصفقة المغبون

واحذركم الدعوى فانها آفة الفضل ومحل النكير ولو كانت حقًا وقد اعتادت النفوس ان تنفر منها وتبخس صاحبها من حقه حتى لو كانت له عشرة وادعى عشرة اجتهدوا ان يجعلوها له تسعة فما الظن بمن كانت له عشرة وادعى خمسين . واياكم والتمويه في العلميات والخلط فيما لا تعلمون حذار ان يقوم لكم في المرصاد من يزيف علمكم ويرد بضاعتكم عليكم فتقعون في النقصان من حيث تطلبون المزيد ولا تحسبن ان العالم لا يسمى عالمًا حتى يحسن الجواب عن كل شيء ولو في العلم الذي تجرد له وقضي عليه ايامه فان العلم لا ينتهي الى حد يقف عنده بل د تقرر ان من اعظم فضائل العلم ان يبصر ربه بقصوره ويطلعه على جهله ومن غتر بنفسه وظن انه وسع كل شيء علمًا فقد دل على قلة بضاعته وضعف مداركه فلا يخجلن العارف منكم اذا سئل عن شيء فلم يحضره ان يقول لا ادري فان ل القائل لا ادري خير من ان يقال له اخطأت بل قد عد ذلك من جملة مآثر ي العلم وادلة كماله فيه حتى ان السيوطي عقد بابًا في كتابه المزهر فمين سئل ن العلماء عن شيء فقال لا ادري فذكر عدة من مشاهيرهم وكبرائهم كالاصمعي وابن ريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة قال : قال ابو عبد الله الزعفراني

كنت يوماً بحضرة ابي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري فقال له بعض من حضر اتقول لا ادري واليك تضرب اكباد الابل واليك الرحلة من كل بلد فقال لو كان لامك بعدد ما لا ادري تمرٌ لاستغنت . قال وسئل الشعبي عن مسئلة فقال لا ادري فقيل له فبأي شيء تاخذ رزق السلطان فقال لاقول فيما لا ادري لا ادري . انتهى بمعناه . ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيس قال ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلسٍ حافل فقالت له أمطرٌ يكون بعد الهلال ام صحو فقال لا ادري قالت اذن فما علة اتصال الغيث في هذا العام قال هذا مما لا نعلمه قالت اتظن ان سكان المشتري يكونون على خلقتنا قال ايتها السيدة اني لا اعلم شيئاً من ذلك فقالت باعجبا فيمَ يتبحر المرء في العلم اذن فقال حتى يقول احياناً اني لا اعلم شيئاً

واذا انتدب احدكم للتأليف في علمٍ من العلوم فليتوخَّ الفائدة والنفع دون الشهرة ومكاشفة الناس بما أُوتيه من فضل علمٍ او سعة اطلاع لئلا ينصرف همه الى التشاغل بما لا تدعو اليه الفائدة المقصودة عن تأليفه ويحشو كلامه بما يفوت طور الدارس من غامض المسائل وغريبها فبينما هو يريد اثبات براعته وطول باعه اذ يطرح المستفيد في لجج لا يدرك لها ساحلا ويصبح كتابه ضرباً من المعاياة وهذا مما سقط فيه كثيرٌ من اكابر العلماء وجلتهم فاضاعوا فضل علمهم في سبيل امثال هذه السفاسف ورغب الناس عن تآليفهم الى غيرها فطرحت في زوايا المُهملات

وسواءٌ ألفتم او حاضرتم فاياكم والتسرُّع في اثبات الاحكام العلمية خصوصاً من رُزق ثقة الناس منكم واطمئنانهم الى الاخذ عنه لئلا يفشو الوهم وتفسد الحقائق العلمية ولا تثبتوا حكماً قبل الوقوف على صحته ومعرفتكم من انفسكم القدرة على ايضاحه متى سئلتم عنه لئلا تُضطرُّوا ان تقولوا هكذا نقلنا فتكون منزلتكم منزلة الناسخ الذي ينقل صور الحروف ولا يعلم ما وراءها . واعلموا انكم متى ابحتم لانفسكم نقل ما لا تعلمون ورَّطكم ذلك في شعاب حرجة واوردكم موارد ويلة لما تعلمون من كثرة المتهافتين على التأليف بقصد الشهرة او الكسب فهموا ما ينقلونه او لم يفهموه فاذا لم تعتصموا بالبحث في كل مسئلة تتلقونها عن غيركم لم تأمنوا الوقوع فيما يعسر عليكم المخرج منه وكنتم سبباً في نشر الاوهام وذريعةً في افساد العلم ولا سيما ونحن في عصرٍ قلَّ نقاده فيفشو الغلط من

غير نكير وتتلقاهُ الناس من وجه الثقة فيعمُّ الفساد

وكلكم يعلم بما صارت اليه حالة العلم في هذه الاقطار وما نحن فيه مذ مئات من السنين من التخلف والوقوف حالة كون غيرنا من الامم التي رقيت بعدنا في معارج المدنية لم تزل عاكفةً على ادمان البحث والتحقيق دائبةً في سبيل الكشف والاستنباط الى ان بلغوا من البسطة في العلم والتبحر في مداركه واستقصاء غاياته ما هو معلوم وزادوا عليه وفرَّعوا منهُ ما لا يقف عند حدّ ولا يحيط به احصآء وكل ذلك مما خلت كتبنا ومدارسنا عنهُ فضلاً عن ذهاب ما كان في خزائننا من بقايا علوم السلف الاَّ ما لا غناء به مما لا يتعدَّى آداب اللسان. فنحن اليوم في امسّ الحاجة الى استرجاع تلك الذخائر ونقل هذه المستحدثات الى لساننا العربيّ لنلحق باولئك القوم ونستأنف خطواتنا في السبيل لذي تقدَّمونا فيه. فاذا عمدتم الى شيءٍ من التأليف فليكن فيما دعت اليه الحاجة مما ذُكر تذرُّعاً الى بث مثل هذه العلوم في البلاد لما تعلمون من اننا قد انتهينا الى عصرٍ لا يجتزأُ فيه من الحقائق بقواعد النحو والبيان ولا يستغنى من الاختراع بابتكار معاني الغزَل والمديح وكلكم آخذ بطرف صالح من ألسنة اولئك القوم وعندكم من اصول العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ما يمكنكم من نقل كثير من الفوائد المحتجبة وراءَ ظل العجمة تردُّونها في قالبٍ عربيّ وتنشرونها في البلاد فتتوفر بذلك علوم الوطن وتتزين مكاتب اللغة بما تزيدونها من مثل هذهِ التصانيف المرسومة فيها اسماؤُكم بما يضمن لكم الثناءَ الطيب والذكر الباقي على الاحقاب

وليس من غرضي فيما ذكر ان اصرفكم عن الاشتغال بآداب العربية والتوفر على اتقان علومها واحكام الجري على اسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر وانتعاشها بعد كبوتها اعصاراً طوالاً واقبال المتأدبين واهل العلم من كل اوب على اقتباس فنونها واحراز اعلاقها علماً بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات بجزالة الفاظها وبلاغة تراكيبها وما في وضعها من الحكمة والابداع فضلاً عن ان اتقان اللغة عند كل أُمة مقدَّم على جميع العلوم اذ هي القالب الذى تُسبك فيه المعاني والمرآة التي تمثل فيها صوَر الخواطر فما كان ذلك القالب اجمل تكويناً وتلك المرآة اصفى ماءً جاءَت المعاني ابدع والخواطر اظهر وانصع. ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم لعبارتها واسلوبها والتعمق في معرفة مفرداتها وأحكامها ومجازها واشتقاقها من اعوَن الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التاليف فيها ونقل

العلوم المذكورة اليها لانكم بذلك تستطيعون ان تصوّروا المعاني بصورها وتُلبسوها اثوابها الخلقية بها وتستنبطوا لها الالفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذهِ اللغة مما حدث بعد عهد اربابها. وانما الذي ينبغي ان تجتنبوهُ فيها الايغال في تقصي مذاهب النحاة واستقراء ما قيل في كل مسئلة مما لا فائدة فيه للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال اذ وجه الاستعمال على جميع الاقوال واحدٌ والمُجمع عليه من الوجوه الفصيحة منصوصٌ عليه في اما كنه مما عرفتموهُ ويتصل بذلك التنقيب عن الانواع والجناسات البديعية وتوخيها في صوغ الكلام من النظم والنثر فان ذلك هادمٌ لاركان البلاغة مشوّهٌ لمحاسن وجوه الفصاحة لما يقتضيه على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجهه الأَّ ما جاء منهُ اتفاقاً او على غير كلفةٍ فانهُ يُعَدّ من المحسنات وحسنهُ يكون بقدر قربه من النظم الطبيعي . الأَّ انَّ هذا قلما يعتدُّ به في نظم البليغ اذ العبرة باصول المعاني التي يُبنى عليها الكلام لا بالتحسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة علي ما نبهت على ذلك كله علماء البديع . ولهذا كانت المحسنات المعنوية اعلى من المحسنات اللفظية لرجوعها الى المعنى الذي هو المقصود من الكلام فضلاً عن ان اللفظية كثيراً ما يكون المعنى فيها مُستعبَدًا للفظ لاقامة الجناس او الفاصلة وانما يطلبها على الغالب من لا غناء عنده في المعاني فيموه على الاسماع بهذه السفاسف التي لاتثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم

ولقد رايت من الناس من التزم السجع والجناس حتى في التقريرات العلمية وكتب التاريخ ونحوها مما قُيد الكاتب فيه باغراضٍ وحقائق لامتسع له عنها ولا محلّ فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما اولع الناس بهذا المذهب السمج ولا حاجة بعد هذا الى ذكر ما بلغوا اليه من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيه المذاهب ولم يتركوا غاية الأَّ اتوها حتى صار السامع اذا تلي عليه كلام كثير من اولئك ظنه ضرباً من تصريف الكلم او باباً من ابواب الاشتقاق واصبحت المعاني الشعرية كانما مسخت فاستحالت جناساتٍ وانواعاً وصار من تناول منها شيئاً تاه على امرئ القيس وابن ابي سلمى ولم يعدّ المتنبي ومن في طبقته شيئاً ومهما يكن من مذاهب الشعراء فاني لا ارى لاحدٍ منكم ان يتعلق قول الشعر ويضيع اوقاته في معاناته لان احدكم احوج الى علمٍ يستزيده وليس في احدكم فضلةٌ لان يخرج من قريحته ما يأخذه الناس عنه واذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمة او ادب او مايعجب من ابتكار معنى او ابتداء نكتة وكان قصارى ما يدور عليه الوزن والتقفية

فما اقلها جدوى تسهر عليها النواظر وتكدُّ فيها الخواطر ثم لا يكون وراءها الاَّ اصوات يمكن ان يؤدى مثلها بنقر الدُفّ ووقع مطارق القصارين . واذا كان فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطره الشعر فلا يستطيع ضبطه فليصرفه في الاغراض الادبية والتاريخية او وصف شيءٍ من الاحوال والمشاهد الطبيعية او ضبط شيءٍ من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدًى ولا يتناول منه فائدة

واعلموا ان المرء مفتونٌ ببنات افكاره فسواءٌ كتبتم شعرًا اونثرًا فلا تعجلوا الى نشر ما كتبتم ولا تكونوا من انفسكم على ثقة وان استحسنتم ما صدر من قرائحكم لاول وهلة ولكن ينبغي ان تكونوا لخواطركم متهمين وتراجعوا ما كتبتم مراجعة الناقد المتعنت وان اصبتم في كلامكم ما ينبغي اطراحه فلا تبتئسوا من ضياع جهدكم فيه ولا تحرصوا على كثرة ابيات القصيدة ولا على توفر الجمَل وتعدُّد السطور فانه لم تعب قصيدة قط بقلة ابياتها ولا مقالةٌ بقصر لفظها ولكنها تعاب بغلطة واحدة اولفظٍ ركيك اومعنًى في غير محله فتسقط لذلك برمتها . ولا بأْس عليكم ان تضعوا كلامكم بين يدي من تثقون بعلمه لينبهكم على ما فيه من العيوب فان نقد واحد من الاصدقاء ومناصحته في الستر خيرٌ من تنديد جماعات من الاعداء والحساد على رؤُوس الاشهاد . وكلكم يذكر شأْن الشاعر الكبير زهير بن ابي سلمى وما كان يفعله من عرض قصائده على اصحابه الشعراء والتوفر على تنقيحها حتى يأْتي على القصيدة منها حولٌ كامل ولذلك لقبت قصائده بالحوليات ولم يكن يستحيي من ذلك ولا أُتي من جهته قط‌ُ فضلاً عن انه كان معدودًا في جملة فضائله يؤْثر عنه الى هذا اليوم

وفي الختام اوصيكم بالمحافظة على ولاء هذه المدرسة التي هي موضع نشأَتكم ومجمع أَشُدّكم وفيها غذيت احلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرشد ومن اشعتها اقتبست بصائركم ما تسيرون في ضوئه سحابة العمر وعلى الجملة فهي التي اتمت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل واكملت فيكم فصل النطق ووصلت ايديكم باسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل الفلاح وارسلتكم رجالاً يتدرجون في مراقي الفضل والعرفان ويحلون محلهم من اندية العمران واعلموا انها لن تزال عصمة لكم تاوون منها الى ركنٍ عزيز كما اوتكم من قبل في حرزٍ حريز فكونوا عند ما يفرضه عليكم الوفاء من تذكر نعمائها وما تتقاضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولائها ولا تغفلوا عن عرفان ما لغبطة مؤسسها العلاَّمة

المفضال من الايادي البيضاء واجمال الثناء على تشييده لكم هذا المقام الذي فيه تعلّمتم صوغ الكلام وتحبير الثناء وتعهده لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالتي المشهد والمغيب وافاءة ظل فضله عليكم واحسانه اليكم ليبلغكم من الفوز اوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق ترسل اشعة هديه في الاقطار وتستنير بفضل نوره متحيرات الابصار * وهذا اليوم موعد تفرّقكم الذي به ينحلّ عقد هذا النظام وينوب اجتماع كلٍّ منكم بذويه عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على القرب والبعد اخوان صدق تجمعهم نسبة الادب ووحدة الطلب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانية حتى تكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً في احياء آثار العلم والتفنن وتوثيق اسباب الحضارة والتمدّن في ظل دولتنا الباذخة الاركان القائمة تحت لواء مولانا السلطان عبد الحميد خان أيد الله دولته وايد به دعائم العدل والامان وجعل ايامه تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاته تاجاً على مفرق الاكوان . اللهمّ امين

في كل وادٍ اثر من ثعلبة

﴿ انا ابن جلا وطلاع الثنايا ﴾

قال الراوي — خرجت استنشق الهواء في ليلة رقّ غيمها وصفا اديمها فالتقيت بثعلبة يتخطر في طريق الباب الشرقي فدنوت منهُ واذا بهِ ينشدُ :

ايا حبذا ذاك الخطيب وحبذا ... مقام خطيبٍ قام في الشرق يهتفُ
خطيب اذا ما فاهَ خلت مقالهُ ... ونقداً لهُ درّاً غلا حين يُعرفُ
ابيتُ وفي اذنيّ رنّة صوته ... وأصبح في عينيّ شخصٌ وموقفُ
فيا حبذا ذاك الخطيب وقولهُ ... ايا وطني حتامَ تلهو وتُشغفُ
وما انت مشغوفٌ بعلم وعزةٍ ... ولا انتَ مشغوفٌ بما فيهِ تشرفُ
ايا وطني حتامَ تنهل موردًا ... من الذل يأباهُ العزيز المشرّفُ

ايا وطني حتام تحتاج من غدا اذا ذكرك الباهي جرى يتأفف
ايا وطني حتامَ حتامَ غافلاً نراك وطرف الحرّ بالدمع يذرف
ايا وطني بالله بالله نهضة الى حيث صوت العصر بالنجح يعزف
فديتك بال....

فلم ادعه يتم الانشاد وتقدمت اليه فوضعت يدي على كتفه فلفت وابتدرني بالسلام فلم احفل بسلامه وقلت من خطيبك اليوم يا ثعلبة وما هذا الهتاف الوطني الذي انفتح له صدري وخفق فؤادي . قال مرحباً بكَ يا ايها الراوي وانني ساقص عليك ما رأيت وسمعت وكله عجائب وغرائب .

قلت هات قال تعال معي ندخل حديقة فنستريح ثم أسمعك ما سمعت . قلت واين الحدائق يا ثعلبة ونحن بعيدون عن منازلنا قال اتبعني ففي البلدة رياض وجنائن ينبت فيها الاس والنرجس والياسمين وحدائق غناء يتخطر فيها البان ويشرق النسرين وفيها من المقاعد حول برك الماء ما تحيط به انواع الرياحين و... قلت نعم ولكن هذه الحدائق الغناء والرياض الفيحاء التي تتعب لسانك بوصفها ليست تخصنا ياثعلبة . فقهقه الخبيث باعلى صوته وكاد لو لم يستند عليَّ ان يسقط على الارض من شدة الضحك ثم قال اه يا راوي اخلفت ظني بك قلت ويحك ما هذا الكلام . قال اعلم ان بني الانسان اسرة واحدة والناس على هذه الارض اخوان وكلهم لكلهم شريك يحق لمن ليس له ان يتمتع بمال من له على

طريقة الاخاء ومذهب المساواة اذ ليس من العدل ان يكون لزيد الف فدان ارضاً وخمسة واربعون بهيماً وعشرة منازل وسبع بنايات واربع مركبات وخدم وحشم وتجارة واسعة وفي صندوق الحديد قراطيس الذهب الوضاح تقول اين كف الكريم الجواد ولفائف الاوراق المالية تنتظر تحت القفل يوم المعاد وكثير من الناس يتضورون جوعاً متقلبين على فراش الفاقة وسادهم الارض وغطاؤهم السماء حال كونهم اخوان وشركاء اصحاب تلك الاموال المتنعمين بملذات الدنيا غير ناظرين الى شقاء اخوتهم ولا راحمين للارملة واليتيم يموتان ذلاً. أفليس مجرى الامور على هذا المنوال بعيداً عن المجرى الطبيعي الذي يرحم كل انسان ويدفع الحيف عن البشر فلا يطعم زيداً في كل يوم الف كبشٍ ويصوم عمرًا اياماً متوالية. او ليس بعد ذلك من حقنا ان ندخل اي حديقة صادفناها فنستريح وننتفع ولا نضر. ويا اخي ان الذي يجربهُ الدهر وتحنكهُ الايام لاولى بالغنى والثروة من ابن الغني الذي لما فتح عينيهِ للنور صادف نظرهُ المال المتجمع وكان صباؤُهُ محاطاً بالعناية فظنّ الناس كلهم في راحة وربي لا يعرف ما يقاسيهِ غيرهُ من الناس واذا شكا اليهِ محتاج لم يدرك قوّة الشكوى ولم يتأثر لها لانهُ لم يذق في زمنهِ ما يؤهلهُ لادراك حاجة القلوب

ولي في ذلك مذهب قضيت معظم ايام الصباء على وضعهِ ولكنني لم اذعهُ ولن أذيعهُ الا في اوانهِ واراه لا يزال بعيداً ولذلك تراني اتعثر في كلامي معك عن هذا الموضوع واخلط فيهِ سترًا لمذهبي الذي لا اريد ان يعرفهُ الآن احد. فدعنا باللّه منهُ لئلا تتسع معنا دائرة الحديث

قال الراوي وكنا قد بلغنا مكاناً فسيحاً على يسار النيل وهناك روض غنّ عطرت الارجاء ازهاره وتغنت فوق غصون اشجارهِ اطياره فاشار ثعلبة الى الباب اشارة ذي حق وقال ادخل وتقدمني فتبعته فسار بي بين مماشيهِ وادغاله كعارف بالمكان واحوالهِ حتى بلغنا بركة في وسطهِ وقد صفت من حولها قوارير الزهور وتلاعبت في مياهها الاسماك وهناك مقعد من المرمر مفروش بالفرش الجميل فجلس ثعلبة ودعاني الى القعود فجلست الى جانبهِ متخوفاً من مجيء الحارس ونحن غرباء لا يعرفنا ولربما اغلظ لنا في الخطاب واخرجنا من البستان مطرودين فلمح ثعلبة اضطرابي وكأنه قرأ افكاري ودرى ما بي فقال خفف عنك فمتى جاء البستاني القمناه حجراً فيصمت قلت وكيف تفعل قال «انجش» كفه بقرش ونصف فيرحب بنا ويقدم لنا فواكه البستان وزهوره ويلح علينا بان نخرج كل يوم ونزوره قلت اولا تخجل من استعمال الرشوة وهي عارٌ على الحرّ العاقل قال وما حيلتنا والناس لا يزالون في لجة الجهل وظلمات الباطل وما يفعل الحرُّ من حولهِ اللئام طوائف . اني اراه مضطرًا الى ما يأباه مدفوعاً الى ما يتحاشاه وله في ذلك عذر انه مرغوم . ومن وجهٍ اخر افلا ترى عظماء الناس وهم منهم بمثابة الرأس من البدن يرشون ويرتشون فلو كنت في دنيا لا يرتشي ولا يرشو نصف سكانها او ثلثهم او ربعهم او عشرهم اذا شئت ورأيتني امدّ يدي الى تناول حقي بطريقة غير طريقة الحق الذي هو لكل فردٍ من الناس ابيضّ لونه او اسود لصح لك ان تعيرّني وتهرب مني كما يهرب الصحيح من الاجرب بل لجاز لك ان تقطع تلك اليد التي تمد الى

غير ما تريده بنفس ابية وطبع مصفى من كل شائبة . وان قلت ان على الحرّ ان يعمل بما فطر عليهِ من الصلاح والاستقامة ويترك الناس وشأنهم قلت ان هذا مردود من جملة اوجه اهمها ان بعض البلاد تهضم حق الضعيف بالقوة فيضطر الى استعمال الحيلة وهكذا الحرّ مع بعض الناس الذين كلما وعظهم ونصح لهم لا يزدادون الا لؤماً واستبداداً فيرى نفسه مجبوراً على فعل ما يحذّر الناس منهُ للوصول الى بعض ذلك الحق الممنوح لهُ بواسطة النواميس الطبيعية

ومع ذلك فلا تظن انني استحسن طريقة الرشوة مع البستاني فان الرجل الذي ترشوه الان بغرش ونصف لكي يغض الطرف عن دخولك بستاناً هو حارسه لا يتاخر اذا ولي في الغد مركزًا مهماً عن ان يمد يدهُ الى الرشوة في امر ذي بال تتوقف عليهِ حياة بعض الناس مادياً وادبياً وذلك بحكم العادة التي يصبح من المحال ان تنزع ممن ربي عليها فتأصلت في دمهِ والعادة كثيرًا ما تغلب الطبع . ولذلك فانني لا التجئ الى قطع لسان البستاني الا عند الحاجة القصوى ومتى نفد الصبر وقلت الحيلة في اكتساب سكوتهِ بالملاينة . وافعل ما افعله خجلاً من نفسي متحملاً وخز ضميري وتوبيخهُ . فانظر بعيشك الى جور الانسان على الانسان كيف يدفع بالحكيم العاقل الى ارتكاب المعصية بحكم الضرورة فانه

اذا لم يكن غير الاسنة مركبٌ فلا يسع المضطر الا ركوبها

قلت نعم ولكنني على غير هذا الرأي اذا ما ضرنا لو استرحنا في مكان اخر من الاماكن العمومية لنا فيهِ حرّية القيام والجلوس قال ولكن النفس

مولعة ٠٠٠ فلم امهله ريثما يتم الجواب مخافة ان يصل بنا الحديث الى ما يصعب سده من الجدال في الموضوع واختلاف الاراء فيفوتني سماع الخطاب الذي كان يترنم بتقريظهِ ووعدني بان يتلوهُ عليَّ فقلت: دعنا يا ثعلبة من هذا الموضوع فلك رأيك ولي رأيي وشنف اذنيَّ بكلمات الخطاب الذي كنت تنشد فيهِ الاشعار حينما التقيت بك ٠ قال اعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق وصمت فاقمت ساعة انتظر تتمة عبارتهِ فلم يفه ببنت شفة فقلت لماذا تتعوذ يا ثعلبة فافاق كما يفيق النائم ونظر اليَّ نظرة غريبة تحيرت من اجلها دقائق فكري واجاب اتعوّذ بالله لانني ارى الانسان عدوّ الانسان وآفة الناس عظماؤُهم واغنياؤُهم فانهم يستبدون بهم كما يشأُون ويقودونهم الى المجازر صاغرين قلت وما هذهِ المجازر قال ساحات الحروب التي ينشئها الغني الكبير ويقدم لافواه مدافعها الفقير الصغير فلو عمت المساواة وشارك الغني الفقير لتوصلا بجهدهما الى استئصال مظالم الحرب والتخلص من ويلاتها قلت ما بالك ياثعلبة احدثك شرقاً فتجاوبني غرباً قال وما تطلب قلت الخطاب الخطاب أفلم تفهم بعد قال آه لقد انساني امرهُ الشيطان وكم من شيطان عندنا ٠٠ بيد انني لا اضن عليك بهِ ولكن في غير هذا الوقت فلقد ازفت ساعة رحيلي اوكادت ٠ قلت لا ادعك تخطو من ههنا خطوة قبل ان تتلو عليَّ الخطاب قال هذا محال قلت بل ممكن قال اذن فباختصار قلت هات فاطرق ساعة ثم اخذ يقول :

اشتدَّت عليّ وطأة الحرّ ليلة فنصبت لي على السطح خيمة وهجرت المنزل والاخوان وأَقمت أَرقب من خلالها سير الكواكب واسبح مدبر الاكوان

وما زلت كذلك بين الأَرق والفِكر حتى بزغت أَشعة القمر فقمت اليهِ مسلماً فرحاً بقدومهِ ونظرت اليهِ يميس عجباً ودلالاً بين كواكب الفضاء ونُجومهِ وكأَن الوحشة من الناس انستني فهدأَت افكاري وارتاح بالي وكأَن مشاغل الدنيا ومتاعبها فارقتني فسكن فؤَادي وهدأَ بالبالي فجعلت أَنظر الى السماء وأَتأَمل عجائب الفضاء وانا لا افكر في النوم ولا تأْخذني سنةُ النعاس لخلوّ بالي من ترهات بعض القوم وابتعادي عن مشاكل الناس ولعمري ان في البعد عن الناس لراحة دائمة وهناءً مقيماً لا يذوقهما الاَّ من ابتعد وكان بحال الدنيا وآلها عارفاً عليماً . والمتأمل المتبصر لا يطلب النوم في اكثر اوقاتهِ الاَّ هرباً من دسائس العالم وترّهاته فهو متى نام لا يرى فيرتاح ضميرهُ من خزعبلات الورى فلا تلمني اذا ضحيت راحة الجسم في سبيل غذاء النفس فالعاقل الحكيم من اشتغل بالغد عن اليوم والامس . وبقيت هكذا وقد أَخذني بالفلك الدوار الولوع حتي جاءني مُورفه يرفرف بأَجنحة تحمل الى الجفن الهجوع فنمت نومة مرتاح فارقهُ الوسواس ولم ينغص عليهِ النعاس

وبينما كنت في حلم لطيف يُنْشَدُ من بعدهِ يا حبذا لو صحت الاحلام طرق أُذنيّ صوت خفيف وهمس مخاطبة وكلام فهببت كما تهبُّ الناقة القلوص وكدت أُنادي اللصوص اللصوص ولكنني تربصت في مكاني ريثما استطلع طلع الخبر فعسى ان يكون ما سمعتهُ وهماً لا عين لهُ ولا اثر فاصخت بسمعي الى الجهة التي بدا لي الصوت منها علي آخذ جاية الخبر عنها فتبينت في الجهة الشرقية ما تخيلتهُ حديث ذي همة وحميّة اذ سمعتهُ يذكر الوطن والبلاد وموضع الخلل ومحل الفساد ويستنهض الهمم الى الاصلاح ويذكرها بما كان

عليهِ الشرق من التقدم والفلاح فسرى عني الفكر الاوّل وقلت ظفر يا ثعلبة مكمّل فخرجت من الخيمة وأرسلت الى الشرق طرفاً فرأيت من الناس جماهير الفاً الفاً وقد قام في صدر المجلس شيخ كأنهُ ابن عاصم احاطت بهِ اللحاظ كما تحيط الاسورة بالمعاصم وهو يردّد ألا أيها الناس ليس من امر الله عاصم فدهشت لذلك المنظر الغريب وسُررت بما قدّر لي من كل امر عجيب فبينما انا أُعلل النفس بالاكتشاف على السرّ المصون والاطلاع على ما هنالك من الامر المكنون نهض من بين الجماعة فتى رطيب الشباب غضّ الاهاب فقال أيها الفيلسوف الفاضل والعالم الندب الكامل ألست الذي جمعنا الى هذا المكان لنسمع من فيك ما تدعونا اليهِ حاجة الاوطان قال اللهمَّ ان حلّفتني فنعم وانني يا بنيّ ممن يفي بالوعد ويبرُّ بالقسم وصمت ساعة خلتها الدهر ثم رفع رأسهُ واندفع ينثر الكلام كما ينثر الدرّ . فقال :

أيها الاخوان والاعوان لقد جمعتكم الى هذا المكان حيث تجمعنا الوطنية واللغة والقصد على تفرق المذهب والبلد والرأي رجاء ان اكون الواسطة في ضمّ قلوبكم ورأب ما انصدع من انفسكم وتوحيد ما اختلف من كلمتكم وتوجيه انظاركم الى محجة واحدة وارسال سهام افكاركم الى الغرض الاعلى والغاية القصوى ألا وهي خدمة الوطن العزيز خدمة صادقة لاتشوبها الاغراض ولا تدنّسها الغايات والاهواء

ناديتكم وانتم خير من اجاب فلبيتم الدعوة واجبتم النداء اذ علمتم ان اجتماعنا لامر جلل وحالٍ ذي بال فاكرم بكم من قلوب شبت على حب الاوطان فدانت بهِ وانعطفت بكليتها اليهِ لا تدخر جهداً ولا تضن بنفيس

فلاعدمتكم الاوطان . أمّا الذين تقاعدوا عن حضور هذهِ الحفلة متخلفين عنها إمّا الى الملاهي السائدة على عقولهم وإمّا لرهبة ممن يكرهون الخير للبلاد الشرقية العربية فلندعهم في ظلمات ضلالهم وسيريهم الغد انهم هم الخاسرون امّا نحن فلنا شأننا ولكل من دنياهُ حال يعمل بها فلنعمل إذن بما انتدبتنا اليهِ العناية ووقفنا لهُ النفس من اعلاء شأن البلاد متكلين في ذلك كلهِ على انفسنا من بعد الله واياهُ نسأل الهداية في السبيل الذي نسلكهُ وهو المسئول في ان يسدّد خطواتنا الى ما بهِ الخير لبلادنا وسائر عبادهِ آمين

وبعد فان من نكد الدنيا على الحر الصادق ان يرى المفاسد قد اوبأت وطنهُ العزيز فلا يستطيع الى دفعها عنهُ سبيلاً . ولقد اجمعنا في الاجتماع الفائت رأيًا واتفقنا كلمة وعقدنا النية ووطدنا العزم وتالفت قلوبنا الملتهبة بحب الاوطان — وحب الوطن من الايمان — على ان نجعل وجهة حديثنا وموضوع اهتمامنا في اعمال هذا المجلس النظر الى الواسطة الفعّالة في دفع المكروهِ ودرء المفاسد عن البلاد التي هصرنا فيها غصون الانس في حدائق الصباء واستنباط الحيلة لرأب صدعها وجبر كسرها فاننا مكلفون في ذلك مطالبون بهِ ولا عذر لنا في اهمالهِ اذ كانت لنا بمثابة الام وكنا البنين . واي ابن يرى جرح أُمهِ يسيل فلا يغسله بالدموع بل اي ابن يسمع انةأُمه من فؤادٍ غليل فلا تنشق منهُ الضلوع . ولقد تفضلتم فكلفتموني النظر في الامر اعتقادًا منكم انني لذلك اهلٌ وعهدتم اليَّ البحث والتنقيب فشمّرت عن ساعد الجدّ والاهتمام فلم اخلف ظنكم بي مع ما أنا عليهِ من قصر الباع وقلّة المتاع . فلقد فُتح عليَّ — واحمد الله على ما اولانيهِ وانا احقر عبيده من

الفتح الذي يؤهلني لخدمة الاوطان — فجمعتكم الى هذا النادي لازجي اليكم بضاعتي فانظروا اليها بعين الحلم واصلحوا ما فسد منها فالانسان موضع الغلط وما نحن في الارض بمعجزين

موضوعنا ايها السادة والاخوان البحث عن علّة تاخر الاوطان والسعي وراء الواسطة التي تنيلنا الامنية والنجاح . اما علّة تاخرنا فمعروفة مشتهرة عنا ألا وهي داء الاهمال الذي تسلّط علينا وعدم النظر في العواقب وما افيض في الكلام عن هذين الموضوعين فلقد سبقت لي الاشارة اليهما في مواضع شتى ومواضيع كثيرة وما فيكم الاّ من يدري امرهما ويذوق الآن مرارة عاقبتهما ومن وجهٍ آخر فانني ارى الهمم منصرفة الى دفع شرّهما فلا حاجة إذن بعد ذلك الى كثرة الكلام .

واماّ وسيلة النجاح فهي النقطة التي يجب ان نوجّه اليها الابصار والمحور الذي يجب ان ندير عليهِ الافكار .... لا يتمُّ نجاح شعب الاَّ باستقلالهِ ولا يكون استقلاله الاَّ بعلمهِ وغناهُ ولاسبيل الى العلم والغنى الاَّ بالجد والسعي والاصلاح ولا اصلاح الاَّ مع الحرية ولا حرية الاَّ متى عرف الشعب مواجبه وحقوقه وههنا نقطة المسألة

وكأني بكل فردٍ منكم ينتظر ان اطيل الشرح عن كل هذهِ المواد وأُفصّل كلاًّ منها على حدتها واعرفها تعريفاً يدنيها من فهم الجميع من السيد العالم الى العامل والحارث والصانع والجاهل . فلقد طاش سهم من ظنَّ ذلك واخطأ الغرض فان الثمرة لا تُقطف الاَّ متى نضجت وارى شعبنا — وسيف الاسف يمزِّق احشائي — لا يزال بعيداً عن الفكر بحراثة هذهِ الشجرة والعناية بها

ورعايتها لكي تنضج ثمارها بحسب شريعة الارتقاء وناموس التقدم فمن الواجب إذن في بادء الامر ان نفتح ابصار الشعب بالتعليم الابتدائي العام فمتى تلقّنهُ واحسن فهمه نقودهُ الى ما لا ندحة عنهُ للشعب الذي يسعى وراء الكمال الا وهو اعتبار نفسهِ في المنزلة الحقيقية التي هو فيها ومعرفة ما للمرء من المقام في هيئة الاجتماع وان الرجل حرٌّ الارادة غير مقيّد الاّ بسلاسل الشرائع الطبيعية والقوانين المدنية والنواميس المتعاهد عليها المتعامل بها · ومتى عرف ذلك ادرك من نفسهِ الحاجة الى ما فوقهُ مما هو اسمى منهُ من معرفة الحقوق والواجبات فيسعى اليها سعي عارفٍ بما يجب عليهِ عملهُ للوصول الى مبتغاهُ وحينئذٍ فلا خوف من المناداة امامه بالحرّية والمساواة وفتح ابواب العلوم العالية والمعارف السامية والفنون والصنائع الجميلة التي هي مصدر الثروة ومنبع الفخر والمجد عند كل أمةٍ من أُمم الحضارة

هذه هي القواعد والاصول التي فُتح بها عليّ والتي لا سبيل لان نرومها الآن برمتها من عامة الشعب فان بلادنا ليست في حالة البداوة فنسير بها على هذا النمط التدريجي ولا هي في درجة الحضارة التامة فننهض نهضة واحدة للمطالبة بحقوقنا وصيانة مصالحنا ولا في طوق خاصتنا ان تستبدل اخلاق العامة مرةً واحدةً وتبث فيها روح المدنية وتسقيها العلم كالماء فالتأني اذن اولى وهو الخليق بنا في هذهِ الحالة الصعبة والمقام الحرج · على ان ذلك لا يعفيكم — وانتم خاصة الشعب وعيونه — من أُمورٍ يتوقف عليها مجرى التقدم في الحال · فاعلموا ان لا بدّ لكم من بذل ما بين ايدي اغنيائكم من المال المتجمع والذي لا فائدة من خزنه في زوايا الخزائن بل من الواجب

صرفه في الامور التي تعود بالفائدة على الوطن من مثل انشاء المدارس والمكاتب والمعامل والمطابع ومساعدة الكتاب ونوادي الادب وتهذيب الاحداث وتعليم الشبان واختراع العمل للفقير القوي واغاثة الملهوف ثمَّ اعطاء كل ذي حقٍ حقه واعتبار كل في درجتهِ ومعرفة حقيقة الاحوال الادارية والسياسية والعلم بان الرئيس كالمرؤس تجاه هيأة الاجتماع وان لكل منهما حقوقاً كما ان على كل منهما واجبات وما اكتمكم ان من وسائل التقدم في البلاد ان يكون وجوه الشعب وخاصتهُ وعلماؤهُ ذوي اهتمام بشأنهِ وسهر على مصلحتهِ واصحاب رأي في احوالهِ وان يكونوا منتقدين على ما يجري فيهِ غير خائفين سطوة ولا عارفين غير صوت الحق · ومن مواجبهم ايضاً ان يقودوا الشعب الى الخير بارائهم السديدة وان ينصفوا الضعيف من القوي ويأخذوا للفقير من الغني وان يكونوا يداً واحدةً ويسعوا في ضم كلمة العامة واستئصال الشقاق ويؤلفوا حزباً وطنياً من شأنهِ المعارضة في كل ما ليس هو من مصلحة الوطن العامة ويشجعوا كل ذي مشروع وصاحب اختراع ويدفعوا بالوطني الى مباراة الاجنبي ويفضلوه عليهِ في المعاملة ولا يحقروا شأن الصغير ولا يدعوا للكبير سبباً للاستبداد ولا سبيلاً للظلم ولن يكونوا على استعداد دائم لان يقوّموا أود الحكام بحدّ السيف·

هذا ولمَّا كنا الآن في مركز حرج وقد حظر علينا الاستقلال الذي هو خير راحة للأمة واعظم الغايات والاماني التي تطمح اليها قلوب الشعوب ارى من الواجب عليَّ انا الذي نصبتموه للبحث عن الواسطة الفعالة في انتشال البلاد من الورطة التي وقعت فيها والبلايا التي صبت عليها ان

اذكر لكم في هذا الموقف الرهيب والمقام المهيب اننا لانصل الى ما نريد الاّ بتقوية الشعب وما نقوّيه الاّ اذا علمناهُ ان لهُ حقوقاً يقدر بل يجب عليهِ ان يطالب بها وههنا عقدة المسأَلة

أَجل مشكلة ياقوم فكيف نحلّها . . .

قيل ان نهرًا عظيماً طغى على بعض القرى فقام اهل القرية المجاورة لردّ شرّهِ فلم يتمكنوا من كبح جماحهِ وكان كلما اقاموا في وجههِ سدًّا اخذتهُ مياههُ وطغت على ما وراءَه وخرّبت وهدمت فراع البلاد شرّه واجتمع الناس يتداولون فيما يجب ان يفعلوه ليكفوا انفسهم شرّ الغرق وفيما هم في جدال واخذ وردّ يريد ان يقيم كل حجتهُ ويجري رأيهُ هجمت عليهم المياه فابتلعتهم عن آخرهم وغرّقت ديارهم .

وانني اخشى ان يجيءَ امرنا نحن العرب مصداقاً لهذا المثل اذ نلهو بمعارضة بعضنا بعضاً عن سير التيار فما ندري الاّ وقد قبضت علينا يد لايبقى لنا منها مناص ولا خلاص . ولكنني اذكر مثلاً آخر أَرويهِ لكم كما عرفتهُ وارى اننا اذا عملنا به كان لنا التوفيق والنجاح :

فلقد قيل ان نهرًا عظيماً طغى ايضاً على بلاد أُخرى فلم يضع اهلها الوقت بالجدال الفارغ ولكنهم اجتمعوا مرَّة واحدة فخطب فيهم أحد رؤَسائهم فقال : يا قوم ان البلاد في خطر الغرق ولا طاقة لنا بردِّ المياه فان كان لاحدكم رأي يكفينا بهِ شرّها فليبدهِ . فقام من بين الجمع فتى لم يلبس الخزّ ولم يتشح بالديباج وقال أَرى ان نحوّل مجرى النهر الى اوسع منهُ ونفتح له مجاري وسواقي أُخرى كثيرة ينفذ منها . فقالوا بأَجمعهم أَحسنت

أحسنت وبادروا في الحال دون مراء ولا جدال فاحتفروا للنهر مجرى جديداً واسعاً وكان بذلك خلاصهم ·

وانني ارى ان نتشبه بهم فلا نضيع الوقت بالمجادلة والمجازفة وتقريع بعضنا بعضاً بل الاولى والأخلق لنا ان نبادر الى تحويل مجرى الامور واستبدال الاحوال وخلع الثوب القديم على ما سبق لي بيانه في صدر هذا الكلام وان كان ذلك لا يتمّ لنا على سبيل العجلة فلا بأس من التأني فان الاهمية متوقفة على البدء في العمل فلنبادرنَّ اذن الى اثارة الخواطر بقتل القديم لاحياء الجديد · قال ثعلبة فلم اتمالك عندئذٍ من الصياح فجاوبني تصفيق الاستحسان من لدن ذلك الجمهور فصاح الخطيب : مهلاً يا قوم وخففوا من حدَّة الاستحسان فلم نأتِ معجزاً وانما نطقنا بما يختلج في صدر كل منكم وما هو الأَبخار الوطنية يتصاعد من نيران الحمية العربية · وانني آمل بكم واثق من غيرتكم معتمد عليكم في تحقيق الامنية و بلوغ الرجاء حتى اذا دنا اليوم السعيد الذي يتمّ فيه عملنا المجيد نرفع رؤوسنا المنخفضة ونقول بتيهٍ وافتخار ألا يا قومنا لقد فُتحت لكم ابواب الحرية فادخلوها بسلام آمنين

فصحت الله اكبر فمن انت ايها النافخ ببوق الوطنية الداعي الى الوحدة العربية · قال يا ثعلبة انا ابن جلا ثمّ دعا القوم باشارة الى الانصراف ورحل امامهم وهو ينشد :

وطني يا وطني يا وطني صانك الرحمن من كل المحن

وما اتمَّ انشاده حتى غاب بجمعه عن بصري فغدوت وحيداً وحدثتني نفسي باتباع آثارهم ولكنني لم اعرف اشرقاً رحلوا أم جنوباً فاقمت افكر في الحالة

ساعة واقول يا وطني وعند ذلك صاح الديك فنزلت أهرول في طابك وأنت تعرف ما جرى بعد ذلك . قلت احسنت بما فعلت من طلبي وساقص على الناس الخبر فلعل نداء الوطن يلقى آذاناً سامعةً قال افعل فان كان فخير والا فلا اقل من ان نكون قد وفينا ببعض ما يجب علينا والآن فانني أريد ان اختم حديثي معك بحديث سمعتهُ من خليل لي صادق في الوطنية محب للآداب :

﴿ وصايا ﴾

المدرسة كما لا يخفى على كل عاقل امّ ثانية تعدّ الشباب وتتم الاخلاق وتثقف الالباب . ولقد حمدت الله على ما انعم بهِ على شرقنا من انتشار التعليم فيهِ وتعدُّد المكاتب والمدارس الى حد يسرُّ نفس الصديق ويكبت العدوَّ ولقد مرَّ بنا زمن تناوبت فيهِ اقلام الكتباء والسنة الخطباء فسوّدت صفحات الصحف ودوت المنابر بذكر المدارس والتعليم فلست بعائد الى بيان فضلها والحث على ولوج ابوابها ولكنني اذكر هنا ما سمعتهُ من كلام كالدر لفظه فتى من العقلاء في خطاب أخيهِ وهو خارج من حفلة توزيع جوائز كان لهُ منها الحظ الاوفر قال :

يا اخي : لقد بلغت السنة الرابعة عشرة من سني حياتك والرابعة من ايامك المدرسية وهي العمر الحقيقي الذي عشتهُ الى الآن اذ كفلك ابواك ومعلموك بآداب الدين والعلم وثقفا عقلك وفتحاهُ للنور فعرفت الواجب وأدركت الحقوق وما ازيدك باهمية ذلك علماً

والواجب يا اخي عند المرء ينقسم الى اقسام وهي ما يجب عليه نحو

هيأة الاجتماع عموماً وما يجب عليهِ نحو وطنه وما يجب عليهِ نحو نفسه · وكما تنقسم فروضهُ تتجزأ ايضاً حقوقه وكما ان واجباتهِ ثلاثة اقسام فحقوقه ايضاً ثلاثة وهي حقوقه على الهيأة الاجتماعية وحقوقه على الوطن وحقوقه على نفسهِ ويلي هذهِ الحقوق والواجبات حقوق وواجبات أُخرى اضافية وهي حقوقهُ على ابويهِ وعائلتهِ والافراد الذين يعاملهم وواجباته نحوهم · وهذهِ يتعلمها المرء بسنة الطبيعة وبدرس الشرائع امّا الاولى فلا يصل الى فهمها فهماً حقيقياً والعمل بها عملاً حسناً الاَّ من سمت مداركهُ وعلت افهامه وانني متوسم بك الذكاء والنجابة وبعد الفهم وكرم النفس وحب النظر في الامور ومعرفة ما يجب عليكَ ويحقُّ لك فلذلك ارجو ان ارى منك فتى يقوم بما يجب عليهِ ويستولي على ما يحق لهُ فلا تخيب املي بك

ولقد كنت اودُّ ان اشرح لك ماهية ما ذكرتهُ من الفروض والحقوق كل على حدتهِ لولا ما اخشاهُ من ملل الحضور وما اعلمهُ من ذكائك وادراكك مما آمل معهُ ان تكون قد ادركت مغزى كلامي وان تبحث البحث الدقيق عمّا لم يتجلَّ لك معناه · فان السامع اذا لم يتروَّ معنى ما يُلقى عليهِ وينقب عن الغاية منهُ كان كالحجر الذي يسيل عليهِ الماء ماراً الى سواهُ فلا ينتفع بهِ واذا فهم المعنى وادرك المغزى ولم يعمل بهما كان كالوعاء المثقوب الذي لا يضبط الماء الاَّ ريثما ينزف منهُ · ولقد ضربت لك هذين المثلين لتعلم ان الانسان انما وجد ليبحث ويدأَب فيعلم ويعمل فالعالم ان لم يكن عاملاً كان كالشجرة التي لا تثمر والتي لا تستحق الاَّ ان تقطع وتلقى في النار ·

ولقد خبرت الايام ودرست الطباع والاخلاق فرأيت اكثرها قد

فسد وتغيّر وصار الصالح بين الناس اعزُّ من بيض الانوق والكريم الحرّ كانهُ رابع المستحيلات فرأَيت ان استلفت نظرك الشاب واجتذب فؤادك الملتهب بدم الصباء الى وصايا أُحب ان أُلقيها عليك فاذا عملت بها نشأَت بين قومك وآلك صالحاً كريماً حرّاً يشار اليك بالبنان

يا اخي: لقد كان يومك فريدة في عقد عمرك ظهر فيهِ من نجابتك وتوقد ذهنك وذكائك ما صفقت لك معهُ الايدي وشخصت بهِ الابصار اليك وحامت الانظار حولك وانطلقت الأَلسنة تقول ما شاء الله. فلقد كللت مساعيك المدرسية بالنجاح فكلل رأْسك البهي باكليل الاستحقاق والظفر ولست اكتمك ان قلبي قد صفق طرباً وان عينيَّ اغرورقتا بدمعة الفرح لما سمعت اسمك العزيز ينادى بهِ في مقدمة الناجحين ورأَيتك سائراً في طليعة المجتهدين المفلحين وبصرت بالجم الغفير يصفق ويضج استحساناً لما كللك الرئيس ولكن لا يستفزك هذا النصر ولا تأْخذك الخيلاء والكبر واعلم ان العاقل من اغتنم يوم النصر وساعة الظفر لاعداد راحة المستقبل وهناء الغد المقبل والحكيم لا يسكرهُ الانتصار ولا يلعب بهِ الكبر والافتخار نعم ان سبقك في مضمار الدرس يعدُّ سبقاً وفوزاً ولكنهما مجازيّان ليس الآَّ فان شئت ان تحققهما فافعل بما اوصيك بهِ:

يا اخي — اوّل ما أُوصيك بهِ السلوك بحسب القواعد والأُصول التي ربيت عليها والآداب التي كفلك بها ابواك واساتذتك واحترام الاديان وعدم التعصب وليكن ضميرك كنيستك وفطرتك قائداً لك وشاور في بدء كل أُمورك عقلك واستشر فؤادك ولا تصغ كثيراً الى اقوال الناس بل اعمل بما

جبلت عليهِ وبما تدلّك اليهِ الفطرة الطبيعية فانها في اكثر الاحيان لا تخدع وقلّما سقط من حسنت فطرته وكان متبعاً لاشارتها · وعليك بالمداومة على المطالعة واستقصاء الاحوال التي تشغل الهيأة الاجتماعية والسعي ما امكنك وما سمح بهِ سنك الى حلّها بالطرق السلمية وعليك بنصح من هو دونك واستنصاح من كان فوقك واحترام آراء الناس ومجاراتهم على ما يريدون مما لا يمسّ شرفك ولا يخدش اسمك ولا يقلق راحة ضميرك واياك ان تدخل فيما لا يعنيك امرهُ وان تشتغل بصغائر الأمور لئلاَّ تلهيك عن العظائم ولا تطلب الشهرة والكسب الاّ من كل طريق محمود وطريقة شريفة · وأُحذرك الكلام عن الناس بدون الحرص الشديد والانتباه الدائم لئلا يستعدوك ويحطوا من قدرك ويصبح اسمك مضغةً في أفواه اللئام · واحذر معاشرة من لم يشرف عنصرهُ وتسمُ غايته وتتنزه خلالهُ عن كل منكر واهرب من السكير والمقامر والنمام ولا تجالس الثرثار والمهذار ولا تستعمل الحيلة والمواربة وكن كثير البحث قليل المراء واجتنب الحدة في جدالك وخطابك وكن كريماً جواداً ولكن لا تكن مسرفاً وانظر قبل أن تسخو بما عندك اذا كان من تجود عليه يستأهل جودك · واذا أعطيت فاكتم عطاءك ولا تفاخر بالحسنة فانَّ بهاء الاحسان بان يكون سرًّا · واياك ان تكون امام القوي المستبد جباناً ذليلاً او ان تسكت عن حقك متى كان لك حقٌ · وقابل الاساءة بالاحسان والعنف بالملاينة فانك بذلك تقود الغير الى اخلاق حسنة وطباع مرضيةٍ واهجر الخمرة وابتعد عن الملاهي ولا تكثر من العشراء والاصدقاء وابلُ قبل ان تضع ثقتك ولا تستأمن على سرّك غير صدرك فان ضاق صدرك عن كتمان سرّك فصدر الذي

تستودعهُ اياهُ أضيق . وكن رحوماً شفوقاً ولكن لاتكن ضعيف الطبع كثير الميل مع الهوى بل كن رجلاً ثابت العزم قويّ الطبع حرّ الارادة . ولاتتقيد بغير الحق فانهُ سيف الحر وترس العاقل ولأمة الحكيم . واكبح جماح نفسك وضع شكيمة لشهواتها وكن حارساً عليها فالنفس أمّارة بالسوء . وأحذّرك الدعوى فانها آفة العلم وعارٌ على المرء وكثيراً ماتكون السبب في انحطاط شأن الرجل وسقوطهِ وبغض معاشريهِ اياهُ . واستقرِ أقوال الحكماء والفلاسفة واعمل الفكرة في كل كلمة منها وتفحّصها تفحصاً يكفل لك حسن فهمها ثم اعمل بما يبدو لك فيها من الحكمة واتبع فلسفتها اذا كانت صالحة . واياك ان تعجل في الحكم أو ان تحكم على وهم فانك لا تأمن بذلك أن تزلّ فتذل وتندم حيث لا ينفع الندم . واذا طلبت فلا تكن مستعطياً واذا نهيت فلا تكن آمراً بل كن في كل احوالك رقيق الجانب ليّن العريكة حلو اللسان واذا حكمت فاحكم بالعدل والانصاف وساوِ بين الكبير والصغير والغني والفقير فان حقوق الانسان واحدة والغنى والفقر لا يؤثران على الحقوق . وبالجملة فانني أُوصيك بان تعامل الناس بما تريد ان يعاملوك بهِ . ثم دفع اليهِ كتاباً في لغة لا يعرفها وقال : وهذا يا أخي رمزٌ عن ان الحياة كلها اسرار ومعميات وكلما فككت رمزاً وكشفت سرّاً بدت لك من ورائهِ اسرار ورموز أصعب منها وأدقّ فاجهد في فهم ما أُلقيهِ عليك من هذا القبيل وتدبّره والله المسئول في ان يكلأك ويرعاك بعين عنايتهِ والسلام . قال ثعلبه وهذا آخر حديثي معك فالوداع أيها الراوي الأمين . وقبّلني ثلاثاً وانطلق وقد اغرورقت عيناهُ بالدموع ...

ختم ووداع

نحن اليوم في موقف يغني فيهِ الصمت عن الكلام فهذا هو الع
من مجلتنا الوطنية نودّع بهِ القرّاء الكرام مستلفتين أنظارهم الى ساب
التي وقفنا لها النفس وضحينا في سبيلها كل نفيس غير خائفين في الحق
ولا لومة لائم · ولقد اضطرتنا الظروف الى السكوت بعد ان كدنا نزيل العق
الصعوبات وبعد ان بدأنا باطراد الخدمة وأخذنا في اصدار هذا الجزء مض
الميعاد الذي وعدنا بهِ ولكن ابى أعداء الحق ونصراء الباطل الآن يغ
ويحبطوا مساعينا فصبرنا ولكن لم ينفع الصبر فجئنا نلقي كلمة التوديع · ولما كان
لم تنتهِ وكان علينا للمشتركين حقوق يجب أن نؤديها رأينا أن نعلن ههنا اننا مس
لردّ عشرة غروش صاغاً للذين دفعوا قيمة الاشتراك سلفاً امّا الذين لم
بعد فمطالبون بخمسين غرش صاغاً بدلاً من ستين التي هي قيمة الاشتراك
هذا ولمّا كان من الممكن أن يتقوّل الناس فيما دعانا الى إقفال
ويحملوهُ على اسباب ليست على شيءٍ من الصحة رأينا ان نعلن في هذ
اننا اوقفنا مجلتنا بملء ارادتنا وعن رغبتنا المجرّدة واننا لا نعود الى نشرها ا
تمّ لنا ما نريدهُ ونسعى اليهِ من الاصلاح والحرّية · وبقي اننا نشكر في
همّة الكتاب الذين ساعدونا على اصدار هذهِ المجلة ثم نودّع القراء الادباء
دنوّ اليوم الذي يلبس فيهِ الشرق حلتهُ الذهبية ويكسر قيود الجهل والع
والله نسأل أن يقينا بوادر الطبع ويردّ عن البلاد كل مكروه ويعضد ا
المعظم وانجالهُ الكرام ويدلّهم الى الخير في سياسة البلاد العزيزة ان شاء الله

الاسكندرية في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر سنة ١٨٩٠